ملك أشوريا

لترسترى

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسى

لم يكد « إشرخادن » ملك أشوريا ، يفوز بالنصر المبين على مملكة عدوه السلطان « لابلى » وينزل به هزيمة نكراء ، حتى تملكه الطغيان والانتقام ؛ فانطلق يخرب البقاع ويحرق البلاد ويشيع الفناء فى كل الأرجاء ؛ لم أمعن فى إنزال نقمته بهذه المملكة ، فأسر رجالها وسبى نساءها ، وساقهم أمامه كالبهائم إلى مقر ملكه ، حيث ضرب رؤوس الجند وذبح فريقا من الأمراء والرؤساء ذبح الشاة ، وسلخ بشرة بعضهم ومازالت عروقهم تنبض بالحياة!

ولم يسلم الملك لابلى نفسه من شر نقمته ونذر عدوانه . فقد حمل مكبلا بالأغلال حبيسا فى قفص كالوحوش الضارية

وبينما كان الملك إشرخادن ضجيعا فى فراشه الوثير ذات ليلة يستلهم فكره ويستوحى جنانه وسيلة بشعة للقضاء على لابلى ؛ إذ طرق سامعيه حفيف يدنو منه ويرف من حوله ! فانتبه بغتة وفتح عينيه فتراءى له شيخ مهيب الطلعة عظيم الوقار ذو لحية مرسلة وحطها الشيب فزاد من هيبته وجلاله ينظر إليه بعينين تنبعث منهما الرزانة وتفيض الوداعة ويسيل اللطف !

لم تمض برهة حتى علا صوت الشيخ وهو يسأل فى هدوء :

أتود أن تقتل لابلى ؟

فأجابه الملك والدهشة تتنازع مشاعره :

أجل . ولكنى لا أجد وسيلة لذلك !

فقال الشيخ : ولكنك أنت لابلى

فأجاب الملك : هراء . لابلى هو لابلى .. وما أنا إلا أنا !

فقال الشيخ : بل إنك ولابلى شخص واحد ! ولعله الوهم الذى يصور لك أنك لست لابلى !

فبلغ العجب والدهش بالملك إشرخادن حدا جعله يصيح بالشيخ قائلا :

ماذا تعنى ؟ ها أنذا جالس هنا على أرائك ناعمة لينة ، محاطا من كل جانب بالعبيد والقيان ! وسأقيم الغداة مأدبة فخمة أدعو إليها خاصتى وصحبى المخلصين ، فنلهو ما شاء لنا اللهو ونقصف كعادتنا كل يوم ! أما لابلى فهو ملقى كالطائر المهيض الجناح ..

حبيس فى قفصه يترقب مصرعه بين لحظة وأخرى ! حيث يسلخ جلده ويعلق من لسانه فى الفضاء فيظل يناضل حتى يطويه الموت بعد عذاب أليم ميرمى جسده للكلاب الجائعة تنهشه نهشا وتمزقه إربا !

فتبسم الشيخ ، وقال فى صوت تشوبه سخرية هادئة :

أتحسب أن فى وسعك أن تعدمه الحياة ؟

فأجاب الملك : فما حال آلاف المقاتلين من أعدائى الذين بطشت بهم وسلطت أرواحهم من أجسادهم فعلقت منها روابى وأكواما . إن الحياة ما زالت تثور فى جسدى أنا .. أما هم فقد صاروا أثرا بعد عين ! أما فى هذا دليل مبين على أن فى قدرتى أن أسلب الحياة ممن أشاء !

فقال الشيخ : أو تحسب حقا أنهم صاروا أثرا بعد عين ؟

فأجاب الملك : أجل .. إذ أن طرفى لا يقع على أحد منهم ، بعد أن أذيقوا من العذاب ألوانا مريرة .. بينما أجد نفسى سعيدا فى قصرى ناعما بالحياة !

فقال الشيخ : ماهذا إلا وهم وخيال .. وما عذبت إلا نفسك !

فقال الملك : إنى لا أحير لك فهما ولا أستطيع لك إدراكا أيها الشيخ

فقال الشيخ : أفى نفسك رغبة إلى الفهم وشغف بالمعرفة ؟

فأجاب الملك : أجل أيها الشيخ الوقور !

فمد الشيخ أنامله مشيرا إلى عين يرفض منها الماء وهو يقول : تعال معى ! فنهض الملك من رقدته ودنا من العين .. فواصل الشيخ حديثه :

هيا انزع ثيابك وغص فى هذا الماء

فسدع إشرخادن بما أمره الشيخ الذى مالبث أن نزل — وهو يملأ إبريقا من الماء — يحب عليك أن تمد رأسك تحت الماء عندما أصبه

وأسال الإبريق على رأس الملك فما إن وضع إشرخادن رأسه تحت الماء المتساقط حتى اكتنفه إحساس غريب وانتابه شعور مبهم .. هو أنه ليس إشرخادن بل كائنا آخر

فقد رأى نفسه — وما برح هذا الشعور المبهم مسيطرا عليه — راقدا على سرير فخم ضخم .. وإلى جانبه امرأة ذات فتنة باهرة وجمال خلاب .. لم يقع طرفه عليها من قبل بيد أنه ألفى فى روعه أنها روحته

وبعد هنيهة قامت المرأة ، وهى تقول فى صوت رقيق عذب :

زوجى العزيز لا لى .. لقد برح بك التعب من الأعمال التى قمت بها أمس فأغرقت فى نوم عميق غير عادتك .. ولم أحاول إيقاظك حتى تصيب من الراحة

قسطا يزول معه ذلك العناء.. غير أن الأمراء ينتظرون أن تشرفهم بلقائك فى القاعة الكبرى .. فهيا ارتد ثيابك واسع إليهم

فأدرك إشر خادن من هذا القول أنه لايلى .. بيد أنه لم يتوله العجب .. وإنما الذى أثار دهشته هو أنه لم يدرك ذلك الأمر من قبل .. وقام إلى ثيابه فلبسها وانطلق فى سبيله حتى بلغ القاعة الكبرى حيث ألفى الأمراء يترقبون حضوره .. فلما ولج بابها نهضوا جميعا وحنوا هاماتهم حتى كادت أن تلامس الأرض تحية وإجلالا لملكهم لايلى .. ثم اتخذ كل منهم مجلسا بعد أن أذن لهم بذلك ونهيأ أكبرهم سنا للحديث .. فقال وفى صوته حدة لا تخفى :

إن الصبر قد عيل يا مولاى إزاء تلك الإهانات التى يلاحقنا بها الملك الأثيم إشر خادن .. ونشق على أنفسنا احتمال الضيم وتقبل العدوان الذى يلاقينا به فى كل مكان ومن الواجب أن نرد إليه إهاناته بمثلها .. فننشنها عليه حربا عوانا — يكون فيها القضاء عليه والفناء لملكه

فلم يصادف ذلك الرأى هوى فى نفس الملك لايلى .. بل أمر أن تبعث من لدنه وفودا إلى الملك إشر خادن لتحتج عنده على ماحدث فيصالحها على الخير !

وما انتهى من النظر فى شؤون الدولة وقضى فيها بما ارتآه حتى أحس فى نفسه رغبة إلى الصيد والقنص فأمر بأن تعد العدة لذلك ، ثم انطلق — يحف به الأمراء — إلى الغابة .. ورمى بسهامه قطيعا من الحمير الوحشية فأصاب الكثير منها وعاد إلى قصره .. فأقام مأدبة أعقبتها حفلة راقصة أتاحت له لهوا ومتعة

وفى اليوم التالى بادر إلى إيوانه حيث فصل فى الشكايات التى ترفعها رعيته إليه ، وحكم فى القضايا الهامة التى تعرض عليه .. بما هداه إليه الحق والعدل ، بعد أن حقق أقوال المدعين واستبان منهم الصدق ! فلما فرغ من شؤون ملكه .. مضى إلى مسلاته المحببة (الصيد) فأصابت رميته لبؤة عجوزا ، فقتلتها وحمل معه شبلها ! وانثنى إلى قصره المنيف حيث أولمت له ولأصدقائه الموائد الحافلة .. وهيئت لهم الحفلات الراقصة التى تتلوى فيها القيان عن دلال يثير الإعجاب وإغراء يبعث النشوة .. وتطرب النفوس بأغانى المنشدين وألحانهم .. ثم قضى الملك ليلته مع زوجه الحسناء الفاتنة التى ملأت قلبه حبا لها وشغفا بها !

* * *

وانقضت أيامه على هذا المنوال .. ينهض بأعباء الملك ومهامه فى الصباح وينثنى إلى اللهو والمرح فى المساء .. ويهجع إلى زوجته

إذا ماجن الليل ! حتى إذا ماانتهى شهر .. آبت الوفود التى بعثها إلى الملك إشرخادن فإذا بها مجدوعة الأنوف مقطوعة الآذان مشوهة الوجوه .. وأخبره الرجال أن الملك إشرخادن قال لهم إن الذى حل بهم سوف يلقاه الملك لايلى نفسه .. إذا لم يبادر برفع الهدايا إليه ، ويبعث له بالجزية من الذهب والفضة وأشجار السرو ! ، ويسعى بذاته ليؤدى له فروض الطاعة والولاء

فثارت لذلك نفس الملك لايلى — إشرخادن من قبل — وعصف به الغضب وهزه الحنق .. وجمع الأمراء وعظماء الدولة فأشاروا عليه بأن يشن على إشرخادن الحرب ، ويبتدره بالهجوم فى عقر مملكته قبل أن يسبقه إلى ذلك .. فوافقهم الملك على قولهم ، ومشى على رأس جيش فى سبيله إلى مملكة إشرخادن ، واستغرقت الحملة فى سيرها سبعة أيام .. كان الملك إبانها يطوف بالجند يشحذ هممهم ويبث فيهم الحماس ويثير فى قلوبهم القوة والشجاعة ويستحثهم إلى النصر ...

وفى اليوم الثامن .. التقى الجيشان .. والتحم الجمعان فى واد عميق .. يتدفق فى وسطه نهر تتحدر مياهه فى شدة وفى عنف .. وقد حارب الجند فى بسالة فائقة وقاتلوا فى شجاعة خارقة ... ولكن الملك لايلى — إشرخادن من قبل — شاهد جنود عدوه تتحدر من سفوح الجبال كالنمل وتتدفق كالماء ، فلم يلبثوا أن هزموا جيشه وأنزلوا بعسكره خسائر فادحة .. ولكن جنوده — على الرغم من ذلك — لم يتراجعوا عن القتال لحظة .. بل صالوا وداهموا إلى آخر رمق فى الحياة أو إلى أن يقبض عليهم ويجردوا من سلاحهم ...

وكان الملك لايلى نفسه يحارب فى حرارة ويقاتل فى بأس على صهوة جواده الأشهب ، بيد أنه ما لبث أن خر صريعا ووقع فى الإسار ...

ثم حمل إلى مدينة إشرخادن فى قفص يحرسه بعض الجند الأشداء ، وسيق معه كل من ظل على قيد الحياة من رجاله ومن رحن سبيا من نسائه .. حتى إذا كان اليوم التاسع .. بلغوا بهم المدينة بعد رحلة شاقة عنيفة !

وقد عانى لايلى — فى محبسه — ماأصابه من جروح وآلام ، وكابد ما ألم به من قرصة الجوع وحرقة العطش .. غير أن كل ذلك لم يكن يقرن بالذلة التى برحت به والعار الذى استشعرته نفسه لما باء به من هزيمة وخسران ...

وكان كل ما يطيقه إزاء أعدائه — وقد جردوه من قوته ومرغوا عظمته — أن

يحرمهم اللذة فى رؤيتهم له يئن ويتأوه .. فتجلد وكتم فى قلبه أشجانه وأمسك على نفسه آلامها ... وتحمل فى بسالة وشجاعة كل ما أذاقوه من عذاب !

وظل عشرين يوما يتوقع الهلاك بين عشية وضحاها .. قابعا فى قفصه ينظر ذويه ورجاله ... وهم يساقون إلى الموت زمراً ويسمع صراخهم وهم يعذبون فى غير رحمة، فيفت ذلك من عضده ، وكان حراسه يأتونه بنبأ قتلهم وسلخهم — وهم أحياء — وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ! بيد أن كل ذلك لم يحمله يسفر لهم عن الفجيعة التى تجتاح نفسه أو يكشف عن الحزن الذى يخنق فؤاده ... بل إنه رأى زوجته الحسناء أحب الخلق إلى قلبه — يقودها بعض (الحصيان) .. فأدرك أنها فى سبيلها لتكون حظية (إشرخادن) .. فلم يوهن هذا أيضا من تجلده وإظهار عدم المبالاة لأعدائه

ولكن الذى أثار حفيظته وأفقده هدوءه ، قول أحد حراسه له فى سخرية : كم أرثى لك يا لايلى ! أين ما كنت تشمخ به من ملك وتختال فيه من سلطان ! فحينئذ حز فى نفسه ما آل إليه أمره .. وعز عليه فداحة ما فقده .. فأخرجه ذلك عن طوق احتماله وتجلده ، فأمسك بالقضبان التى أحيط بها وراح يخبط رأسه بينها مبتغيا الموت غير أنه لم يجد لديه القوة التى تعينه على ذلك .. فانقلب يئن فى يأس وانكفأ ينتحب فى لوعة !

* * *

وأخيرا أتاه رجلان من الجلادين .. فقيداه بحبال غليظة ، وانطلقا به وهما يدفعانه أمامهما إلى ساحة الإعدام .. حيث ألقاها ملطخة بالدماء مليئة بجثث رجاله وقد علقوا من الرقاب ! ثم أبصر وتداً من حديد قد ركز فى الأرض ، فأدرك أن الموت يترقبه من فوقه ، وماثبث الجلادان أن أمسكا بلايلى من حباله ورفعاه إلى أعلى ثم خليا بينه وبين الأرض ، فهوى فوق الوتد ! ..

فصاح لايلى : إنه الموت .. فرحماك يا إلهى ! ثم انفجر باكيا من الألم ، والدم يتدفق من جراحه ونسى ما كان من عزمه على التجلد ، وراح يتضرع إلى ربه أن ينجيه من هول هذا العذاب ، وأخذ يتوسل إلى من حوله أن يرحموه ! دون جدوى !

غير أنه ماثبث أن صرخ من فرط الألم والفزع لا يمكن أن يكون هذا حقيقة ! إنه حلم .. لا بد أنى نائم .. وطفق يكافح فى غير هوادة حتى يفيق إلى وعيه ويثوب إلى رشده !

فإذا به يلتقى نفسه شيئا آخر .. لا هو بإشرخادن ولا هو بلابلى ! بل حيوانا ! فتولاه العجب وتملكته الدهشة ! كيف أنه لم يكن يعرف من قبل أنه حيوان

لقد كان قائما فى واد نضير يرعى العشب الأخضر ، ويدب الهوام عن جسده بذيله الطويل ، ولكن ! هه ! إنه رأى إلى جواره جحشا رمادى اللون مرقش الظهر طويل السوق رفيعها .. يرتع حواليه ، ثم ما لبث أن أقبل عليه ودفع رأسه فى بطن أمه (إشرخادن) وتناول بشفتيه الصغيرتين ثديها ، وراح يمتص منه اللبن !

فخطر (إشرخادن) إلى أنه قد صار أتانا ! وأن ذلك الجحش الذى يرتع فى ظلها ولدها ! ، فلم يثر ذلك فى نفسه نوازع الحزن ولم يحرك دواعى الاستغراب بل أشاع فى نفسه بهجة وحنوا !

وعلى حين غرة ! برق شىء فى الهواء ثم أصابه فى جانحته ونفذ فى لحمه فأحس له ألما بالغ الحدة فانطلق يعدو بعد أن أرهف أذنيه نحو الجهة التى أتاه منها السهم إلى وجهة أخرى ! وجحشه الصغير يتوثب وهو يجرى إلى جانبه !

فما كادا يبلغان القطيع الذى نفرا منه منذ حين حتى أصاب الجحش فى عنقه سهم آخر جعله يخر صريعا والدم ينزف من جرحه غزيرا فلم يتمهل إشرخادن — وهو أتان — عن ولده بل مكث جواره لا يحير لأمه ما يخفف من شدته .. فحاول الجحش أن ينهض على قوائمه الطويلة الرفيعة .. ولكن ما لبث أن تهاوى إلى الأرض خائر القوى واهن الجسد ! فأسرع نحوه مخلوقان يسعى كل منهما على ساقين — من البشر — وعجلا بذبحه فى غير شفقة .. فما لبث إشرخادن أن ردد فى اضطراب وهلع : « كلا .. لا يمكن أن يكون هذا حقيقة ! إنه رؤية حالم .. فما أنا بلابلى كما أنى لست « أتانا » .. وإنما أنا إشرخادن ! »

***

حاول إشرخادن أن يخلص نفسه مما اكتنفها .. فأخذ يناضل وراح يصرخ .. فما لبث أن ألفى ذاته واقفا فى ماء العين ! وما برح الشيخ قائما يصب قطرات الماء على رأسه من إبريقه ! فهتف وما زالت جوانحه تختلج بالخوف وقلبه يخفق بالروعة : آه .. يالها من رؤيا مخيفة .. أى فزع عانيته منها ! كم استغرقت من الزمن ؟! فأجابه الشيخ فى هدوئه وابتسامته : زمن ؟! إنك لم تكد تضع رأسك تحت الماء المتقاطر حتى جذبته فى شدة ولم تمض لحظة .. أنظر .. إن الإبريق مازال مملوءا بالماء .. أفهمت ؟!

لم يجب إشرخادن ! فقد جمد لسانه فى

فه وراح يمد إلى الشيخ نظرات من الدهشة والفزع .. فواصل الشيخ حديثه بعد هنيهة قائلا : هل أدركت الآن ؟ وعلمت أن لا بلى هو أنت ؟ وأن جنده الذين قتلتهم هم أنت أيضا .. ليس الجند وحدهم .. بل الحيوانات التى ترويها بسهامك فتوردها مورد الهلاك ، وتتخذ من لحومها طعاماً لك ولأضيافك .. ما هى إلا أنت ؟ لعلك كنت تحسب أن الحياة لك وحدك .. بيدأنى — وقد حسرت حجاب الوهم والتصور الكاذب عن بصيرتك — جعلتك ترى أن الشر الذى تحاول أن تصيب به غيرك من الخلق إنما يرتد إليك ويحيق بك أنت !

إن الحياة واحدة عند الخلق جميعا .. وما حياتك إلا شطر ضئيل كل الضآلة — من هذه الحياة العامة ! وليس فى وسعك أن تؤثر إلا فى شطرك هذا وحده .. تزيده أو تنقصه .. وتسىء إليه أو تسعده !

إنك تستطيع أن تقوم من نصيبك هذا بإزالة الحدود التى تفصل بين حياتك وحياة الآخرين فتنظر إلى حياتهم كما تنظر إلى حياتك ، وتحب لهم ما تحب لنفسك ، وتسمى إليهم بالمودة والعطف والحنان ! بهذا يمكنك أن تضاعف نصيبك من الحياة !

واعلم أنك تؤذى نفسك وتضر حياتك باعتقادك أنها هى الوحيدة فى هذا الكون . وأنك تزيد فى خيرها وسعادتها على حساب حياة غيرك وشقائهم !

إنك بهذا تصغر من شأنها وتحملها ضئيلة حقيرة !

إن إغناء الحياة التى تكمن فى الخلق أعظم وأجل من أن يستطيعه فرد من البشر فى مثل قواك وملكوتك .. إن حياة هؤلاء الذين ذبحتهم لم تزل إلا فى نظرك أنت ! إنها لم تفن ولم تصبح أثرا بعد عين كما خيل إليك . أواعتقدت أن بإمكانك إطالة حياتك وتقصير حياة الآخرين .. هه ! إنك إذن لسادر فى وهمك .. فما أنت بمستطيع ذلك !

فالحياة لا تعرف أواناً أو مكاناً .. إن حياة لحظة مثل حياة آلاف السنين .. وحياتك مثل حياة الآخرين على حد سواء ! ولا يملك أحد للحياة إنهاء أو تبديلا .. فهى الشىء الوحيد الأبدى الوجود . الدائم الخلود !

لم يكد يفرغ الشيخ من حديثه وينتهى من حكمته حتى تلاشى بغتة من حيث أتى !

***

وفى اليوم التالى أصدر إشرخادز أمره بإخلاء سراح الملك لابلى ومن بقى من الأسرى والسبايا .. وبإعادتهم مكرمين معززين إلى بلادهم .. وأعلن فى الناس أنه لن يعدم إنسانا مد اليوم ! ثم دعا ابنه (أشور بانيبال) فقلده السلطان .. و نادى